

تأملات فى لحن الصليب

فاى إتآف إينف

بقلم: جورج كيرلس

المناسبة التى يقال فيها:-

- عيدي الصليب (17 الي 19 توت & 10 برمهاٲ)
- والساعة الأولى من يوم خميس العهد
- الساعة السادسة والتاسعة من يوم الجمعة العظيمة

المقام الموسيقى :-

المقام الأساسى هو مقام الحسينى ، وهو من فصائل مقام البياتى ألا أن اللحن ممتلىء بالتحويلات المقامية العجيبة والجميلة.

كلمات اللحن:-

هذا الذى أصعد ذاته،

ذبيحة مقبولة،

على الصليب، عن خلاص جنسنا.

فاشتمه أبوه الصالح،

وقت المساء على الجلجثة.

شرح اللحن:-

يمكن تقسيم اللحن الى تسعة أجزاء رئيسية:

1. البداية الرصنة الزخرفية:

اللحن بالرغم أنه يقال في يوم الجمعة العظيمة والتي تسمى الجمعة الحزينة، إلا أنه ليس حزينا بالمرّة، فهو وإن كان وقورا في مطلع رصينا في بدايته إلا أنه يحمل بين ثناياه زخارفاً وحلياً تعبر عن البهجة، كما أنه ليس بطيئاً، بل نشيطاً ليدعو الي البهجة.

وهذا طبيعياً ، فهو لحن الصليب الذي يقال في عيدي الصليب ، وعيدي الصليب يعاملا معاملة الأعياد السيديّة، فيصلى فيهما بالطقس الشعائري والفرايحي.

فخشب الصليب بالرغم من أنها تلامست مع جسد المسيح المتألم، وتخضبت بدمه الذكي الكريم المنسكب من كل جراحاته، وبالرغم من أنه لم يُربط عليها بل سمر فيها ، وبالرغم من أنها استمعت عن قرب لكل أنات المخلص، إلا أنها في المقابل أسعدت كل البشرية إذ كانت السبب في خلاصها ونجاتها من الموت الأبدي.

ألا تستحق هذه الخشبة المقدسة أن نعيد لها؟ وأن نفرح بها، وأن نصيغ لها لحناً خاصاً، وأن يحوى هذا اللحن بعض الزخارف والحليات التي تعبر عن سعادتنا بها؟

إن مطلع اللحن يتسم بالوقار والفقامة والقوة وهذا طبيعي، لان الصليب هو الوسيلة الوحيدة التي تجعل الإنسان يموت واقفاً على رجليه، أي يموت وهو قائماً. فالمسيح لم يقع ميتاً لكنه مات قائماً.

" خروف قائم كأنه مذبوح " (رؤ5: 6)

" أنتن تطلبين يسوع الناصري المصلوب .قد قام " (مر6: 16)

وهى أيضا رمزا للقوة

"كلمة الصليب عند الهالكين جهالة وأما عندنا نحن المخلصين فهي قوة الله" (1كو1: 18)

وهى مدعاة للافتخار

" حاشا لى أن أفتخر إلا بصليب ربنا يسوع المسيح" (غل 4: 6)

2. الحملة الحاملة المتكررة ثلاث مرات:

" هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد على الصليب"

الصليب هو علامة الحب للبشرية كلها، لذا فاللحن تتكرر به جملة حاملة مفعمة بالحب تتكرر ثلاث مرات للتأكيد على أن الصليب هو علامة حب لا نهائى.

كما أنه رمزا للحياه

"مع المسيح صلبت فأحيا" (غل2: 20)

كما أنه رمزا للمصالحة والسلام

"فقد صنع المسيح هذا الصلح بدم صليبيه" كو 1: 20

وهذه الجملة الحاملة المتكررة تنتهي كل مرة بمجموعة من السلالم الموسيقية المتتالية الانخفاض، التي تصل إلى أكثر النغمات انخفاضاً في منطقة القارات من اللحن، وكأن الكنيسة تريد أن تؤكد أنه من أجل الحب الإلهي نزل إلى تواضعنا، ثم نزل أيضا إلى الجحيم من قبل الصليب.

3. لمسة الحزن العابرة:

هذا اللحن الكبير الذي يقال في يوم الجمعة العظيمة، خلا من أية جمل حزينة، إلا من جملة واحدة صغيرة، بها تحول موسيقى عابر إلى سلم كبير - حتى لا يكون الحزن دامسا- وذلك لمجرد أن يُعبر اللحن عن الألم الذي يذوقه من يبذل نفسه من أجل حبه للآخرين.

4. التعبر عن الذبيحة بالخفض:

عبر لحن "هيتنى ني برسفيا" الذي يقال بعد صلاة الصلح عن الذبيحة "ثيسيا" بنغمات حادة متصاعدة. وجاء لحن "فاى إت آف إينف" ليعبر عن الذبيحة بطريقة عكسية، أى بنغمات غليظة منخفضة.

فذبيحة "هيتنى" كانت "ذبيحة تسبيح" ترفع من على مذبح القلب إلى الآب السماوى. أما ذبيحة "فاى إيظاف" فهي "ذبيحة بذل" قدمها الآب السماوى إلى كل البشر على الأرض، ذبيحة حملت ثقل خطية العالم كله، فسقطت إلى الأرض تحت نير الصليب.

5. التعبر عن قبول الذبيحة:

وبعد أن سقط الحمل الوديع المساق إلى الذبح على الأرض تحت نير الصليب، سمروه بالمسامير. لذلك فاللحن عند كلمة "إسشيب" ومعناها مقبولة، نجده يأخذ شكلا آخر، فتصبح نغمات كالطلقات محددة ونافاذة، وكأنها أصوات المطارق وهي تدق المسامير في يديه ورجليه المقدستين، وكأن الكنيسة تريد أن تعلن أنه لا بد للذبيحة لكي تكون مقبولة، أن تسمر على الصليب. ووضع اللحن نغمة "سى بيكار" الغريبة عن المقام فى هذا الجزء لكي تساعد فى تصوير دقات المسامير وهي تخترق جسد المخلص.

6. التمهيد لكلمة الصليب:

مما لا شك فيه أن اللحن بالكامل هو للصليب، لكن عند اقتراب النطق بكلمة الصليب كان للحن أن يمهد لها بأسلوب مختلف، فهي كلمة عند النطق بها ترتعد الشياطين،

لذلك فاللحن عند كلمة "هيجين بي استافروس" ومعناها "على الصليب" يبدأ بتحول المقام ودرجة الاستقرار تكون "لا" وتظهر نغمة "دو نصف ديبيز" لأول مرة في اللحن، لتشكل تأثيرا غريبا لكن جميلا، مع انخفاض مفاجئ عند كلمة "هيجين"، التي بأسلوب الميليسما تمتد ليتأخر النطق بكلمة الصليب عن عمد، ثم في منتصف كلمة هيجين يحدث تحول موسيقى آخر، فتظهر الى جوار نغمة الـ "دو نصف ديبيز" نغمة أكثر غرابية هي "سى نصف ديبيز" وتتلاحم النغمات الغريبة في سلاسل منخفضة لتمهد للنطق بكلمة "استافروس" ولتعتبر السلاسل المنخفضة عن الفترة التي يتم تجهيز الصليب على الأرض تمهيدا لرفعه على الجلجثة.

7. التعبير عن كلمة الصليب نفسها:

ما هذه الجملة العجيبة التي تصرخ في تقطع، إنها تصور الصليب وهو يُرفع بعد أن علقوا عليه المخلص لتنتظره كل عين، فاللحن يرتفع ويحتد ويتقطع، وكأنه يصور صراخ السيد المسيح على الصليب وهو يقول تارة

"أيلي إيلي لما شبقنتنى" مت 46:27

وتارة أخرى عندما صرخ إلى الآب وقال: "قد أكمل"

وأخرى عندما "صرخ بصوت عظيم وأسلم الروح"

وظهور نغمة الـ "فا نصف ديبيز" الغريبة أيضا أعطت لونا وطعما لكلمة "الصليب" مختلفا عن اللحن بأكمله، لتخص الخشبة المقدسة بنغمة خاصة.

8. التعبير عن خلاص جنسنا:

أما الجملة "خا إب أوجاي إمبنجينوس" فجاءت بسرعة معتدلة فبدت أبطئ عن ما قبلها، لتعبر عن موت السيد المسيح عندما قال:

"يا أبتاه فى يدك أستودع روحى"

أنه التسليم الكامل للنفس، الراحة والاطمئنان إذ أسلم ذاته وأصعد ذاته بإرادته الكاملة على الصليب.

وربما جاءت هكذا لتعبر عن الظلمة التي كانت على الأرض كلها.

9. ذروة اللحن ونهايته:

وينتهى اللحن نهاية قوية حيث تزداد سرعته فجأة بعد السرعة المعتدلة التي ميزت بالجملة السابقة، إنها ذروة اللحن، إنه الهدف وقد تحقق إنه الخلاص قد تم، واشتمه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة.

لقد إنشق حجاب الهيكل من وسطه من فوق إلى أسفل الذي كان يفصل القدس عن قدس الأقداس، ليظهر ما كان مخفيا ورائه.

والأرض تزلزلت لتبتلع الأشرار قساة القلوب، والصخور تشققت لكي تنطق بمجد الرب "إن سكت هؤلاء فالحجارة تنطق"، والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين.

إنها ذروة اللحن وغاية الصليب خلاص جنسنا بالذبيحة التي قدمها المسيح بذاته، فاشتمها أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة.

تأمل:-

إلهي .. يامن أصعدت ذاتك بإرادتك، لتقدمها ذبيحة مقبولة على الصليب، ليس أحد في العالم يستطيع أن يقدم مثل هذه الذبيحة. لذلك إقبل ذبيحة تسيبنا بهذا اللحن "فاي ايطاف اينف" فهو يخرج من قلب يحبك ومن شفاه تتلذذ بتسيبك.

إجعل نعماته تتسمر في قلبي ولحمي، وعندما تنخفض نعماته أنخفض معها إلى قبرك المقدس لأمات معك كل النهار.

وعندما تتصاعد تأخذني معها الى العلو فينشق داخلي كل حاجز يفصلني عنك، ويتزلزل جسدي الخامل ليطرد خارجه كل خطيئة، ويتشقق قلبي المتحجر لينطق بمجدك كما نطقت الحجارة عند موتك المقدس، فأقوم من رقاد الكسل لأرغم قائلًا لحن الصليب

"فاي ايطاف اينف".